مِعطفُ الرماد جسدُ الضوء لـِ بسمة الصيّادي:

مقاربة قصصيّة

بقلم الدكتورة هدى معدراني

الدكتورة هدى معدراني

حضرة عميد كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة المحترم، زميلاتي العزيزات، زملائي الأعزاء، طلّابَنا الأحبّة، الحضور الكريم

نجتمع في هذه الندوة الطيّبة على مائدة من موائد الفكر والثقافة نتلاقح الأفكار والآراء فنغني ونغتني. ونحن بين يدَي عمل أدبيّ لكاتبة أيقظت فينا الرغبة إلى البحث والنقد والتقصّي. وقد قُيِّض إليّ أن أدلي برؤيتي النقديّة. أقدّمها بين أيديكم وعلى مسامعكم تحت العناوين الآتية:

نشر في موقع محمد أسليم يوم ٢٦ أبريل ٢٠١٥

www.aslim.ma

١. الألم حافز الإبداع

وأنا أقرأ المجموعة القصصيّة كنت ألهَث وراء الكلمات، أحاول أن أنهي القراءة على عجل علّني أتعرّف إلى كاتبتها. كنت أتخيّل أنّني سألتقي امرأة يدمغها الحزن وتملأ التجاعيد وجهَها وتُحني الأيام ظهرَها.

كنت أسأل نفسي: كم يبلغ عمر بسمة حتّى تسنّى لها أن تكتب ما اختبرت وأن تختبر ما كتبت؟ ما هو إحساس بسمة التي عشّش بين سطورها الحزن والألم والقهر والغدر؟ كيف أمضت بسمة سنيَّ حياتها حتى تقول كتاباتها ما قالت؟ فما كتبته بسمة خلاصة عمر. وإذا بها شابّة لكنّ خبرتها خبرة أدبية. عندها تذكّرت قول أحد النقّاد لشاعر أنهى إنشاد قصيدته: «إن كنتَ رأيت ما ذكرت، فقد رأيت عجباً. وإن كنت لم ترَه فقد وضعت أدباً». وضعت بسمة أدباً. أدب ولد من رحم الواقع. واقع عاشته الكاتبة، تجربة لمستها في عيون مَن عرفتهم ومَن تخيّلتهم وفي أرواحهم.

القصص وإن كانت متخيّلة، فهي ذات مرجع واقعيّ يتراءى لنا أنّى توجّهنا. إنّها وليدة هذا المجتمع لتعود إليه. تتناول أزمة الحياة في مجتمع ضؤلت فيه سبلُ الحياة.

من أجل الحياة بإنسانها وقيمها كتبت، عن الموت، عن الدنيا الجانية، عن طعنات الناس وغدرهم.

قصصها مستمدّة من الواقع المعيش ذي الأنياب الحادّة. وهذا ما يجعلني أقول إنّ النص القصصيّ لدى بسمة الصيادي هو نصّ رؤيويّ مقاوم؛ فعندما يكون المجتمع بؤرة فساد وحلبة صراع يسود فيه الطاغية والطغيان تغدو الكتابة عن هذا الواقع والانحطاط الأخلاقيّ والإنحلال التعفّن القيميّ فعلًا من أفعال المقاومة.

إنّه الأدب المقاوم الذي يقاوم الرذيلة المتفشّية في المجتمع. يسلّط الضوء عليها فيراها القارئ تحت المجهر بعد أن كان المجتمع يواريها عن الأنظار.

ولا يخفى أنّ هذه القضايا قديمة جديدة وما زالت تكتسب أهمية بالغة إذ إنها قضايا راهنة نعيشها وتدور في فلكها كتاباتُ الكثيرين. ويُخشى عند معالجتها في نصّ أدبيّ روائيّ أن يطغى الخطاب القيميّ على الخطاب الأدبيّ فتتحوّل القصّة من نصّ أدبيّ ذي فاعليّة جماليّة دلاليّة إلى نصّ ذي فاعليّة إيديولوجيّة مباشرة؛ فكيف كان النصّ القصصيّ في هذه المجموعة؟

٢. السؤال غاية المعرفة وعدم الخروج غاية لا نقص

السؤال سبيل المعرفة، يثير الفضول ويدفع إلى البحث، فيتأسّس الوعي وتبدأ عملية التغيير.

مِن همّ إنسانيّ يسكنها، ومن مازوشيّة ترزح تحت عبئها يبدأ سؤالها لفهم الحياة.

بالحزن تكون إنساناً.

من الألم تتعلّم.

من الواقع الأليم تبدأ الأسئلة. تكمن الأهميّة في طرح السؤال؛ فالسؤال الذي تثيره القصص يعكس عدم الرضا. إنّه نتيجة رفض الخطأ. وإذا وعيت الخطأ تبحث عن طريقة لتفاديه أو لتصحيحه.

قصص بسمة لا تقدّم إجابات. إنّها تُنبت في متلقّيها أسئلة يتصدّرها: لماذا يحصل ما يحصل، وكيف السبيل إلى الخلاص؟

ولأنّ الإجاباتِ مرهونةٌ بالقارئ تصير الأسئلة بداية تمرّد ورفض ومن ثَمّ قراراً بالتغيير.

بسمة تبثّ أشجانها. من الشجن تبدأ لتقول: الشجن ليس هواية. ليس نزوة. إنّه طريقة حياة.

قضية لافتة في هذه القصص هي عدم الخروج. عدم الخروج من العالم المضني الذي تعيش فيه الشخصيّة. والسؤال الذي يُطرح: لماذا؟ هل أخفقت الشخصيّة لأنّها لم تسعَ، أم لأنّ الواقع المعيش مغلق لا يسمح لها بالخروج؟

في معظم القصص لا تطرح بسمة حلولًا وهذا ما يؤدّي إلى خلق أسئلة لدى المتلقّي؛ ففي «الصفعة الأولى» تتهافت الأسئلة على ذهن القارئ: لماذا تلزم الشخصيّة الرئيسة الصمت؟ لماذا لا تترك زوجها وتنجو بنفسها؟ ما الذي يجعلها ترضخ؟ بمَ نفعتْها ثقافتها؟ لماذا لا يكون السند الذي تبحث عنه الشخصيّة داخليّاً؟ لماذا تستند في حلّها المشكلة إلى الرجل؟ متى ستصبح المرأة سند نفسها؟

لا يضيق القارئ ذرعاً بهذه الشخصيّات التي لا تسعى إلى تغيير الواقع الأليم ولا ترسم خطّة بديلة تنتشلها ممّا هي فيه، بل على نقيض هذا كلّه ينطلق القارئ في ثورة تتبدّى من خلال أسئلة يتبنّاها، يتقمّصها وتتقمّصه. وكأنّ بسمة الصيادي تريد أن تقول: إنّ خلق الوعي لدى القارئ يبدأ بتحفيزه على السؤال. فهي تقول في مقدمة كتابها إن محاولة فهمها العالم نضجت لتتحوّل بحثاً عن الأسئلة. وها هي في قصصها

نشر في موقع محمد أسليم يوم ٢٦ أبريل ٢٠١٥

www.aslim.ma

لا تعطي إجابات وحلولًا بل تثير أسئلة في ذَوات قرّائها لأنّه كما تقول: «كلّ شيء يبدأ من الاستفهام الأوّل». إنّ الشخصيّات التي لم تخرج على واقعها استفزّت القارئ فصار يشارك القاصّة في عمليّة البحث عن وسائل التغيير. لقد أبرقت القصص أسئلة تشكّل انطلاقة للتمرّد الإيجابيّ؛ فهل ترمي بسمة الصيادي إلى الإضاءة على المشكلة التي يعانيها واقعنا فيبحث القارئ عن الأسباب والحلول عندها تتحسّن علاقتنا بالحياة وتبزغ الأحلام؟ فالأحلام لا تولد إلّا إذا كنّا عى علاقة جيّدة بالحياة والعلاقة الجيّدة أسيرة المعرفة ومفتاح المعرفة السؤال.

٣. الحاضر أسير الماضي

لأنّ الإنسان نتاج محيطه وهو لا ريب متأثّر به، فهو أسير تلك الظروف التي تدخل في النسيج الداخليّ لشخصيّته وتالياً يغدو الفكاك منها أقرب إلى المستحيل، ولأنّ الإنسان كائن زمنيّ بمعنى أنّه لا يستطيع أن يعيش حاضره مفصولًا عن ماضيه، تُسلّطُ القصص الضوء على الماضي، على مكوّن الذاكرة، على ذلك الجزء المعتم الذي يتربّص بالشخصيّة؛ فالزمن نحمله في الذاكرة وإن مضى وانقضى.

تَعوّدنا محاولة امتطاء صهوة الذاكرة للهروب من واقع أشدَّ إيلاماً وأدهى شرّاً. لكن أن نرفض الواقع ونكونَ أسرى الذاكرة نريد الفكاك منها ونفشل، تجربةٌ جديدة تقدّمها بسمة الصيادي.

تطمح الشخصيّات إلى أن تنفض عن نفسها غبار الماضي الذي تلبّس بها وتعجز. يعني أنّها في قعر اليأس تتقلّب من درك إلى درك لتهرب من ذاتها، من هُويّتها لكن لا مفرّ. إنّها خيانة المنفى، فهي متغلغلة في الماضي. والحاضر مرآة ذلك السيف المسلط على رقبة الشخصيّة.

إذا لم يكن هناك من سبيل إلى فقدان الذاكرة، فكيف التخلّص من أثقال الماضي وآلامه؟ ما الحلّ وكيف الطريق إلى إصلاح ما عطب؟

لم تقدِّم الشخصيّات الإجابة. هل عدم البحث عن الإجابة دلالة على عدم القدرة على جبر ما انكسر؟ هل تطلب بسمة بناء ذاكرة جديدة لا ألمَ فيها؟ هل تنطق القصص بمقولة إذا كان الماضي يسيرنا فليكن جميلًا؟

نشر في موقع محمد أسليم يوم ٢٦ أبريل ٢٠١٥

www.aslim.ma

تتوجّه بسمة إلى الأمّ، إلى الأب، إلى الزوج، إلى الحبيب، إلى الإنسان، إلى المجتمع، إلى الكون. وتطلب منهم أن يستيقظوا من سباتهم الآن لأن ما يصلحه الغد يتعلّق بمشكلات الغد وما فات مات واندثر ولا إمكانيّة لترميمه إلّا ببناء حاضرٍ سامٍ. والحاضر يكون بالتنشئة السليمة، بالوعي، بالحبّ، بالعطاء. بذل الحبّ في الحاضر وبناء الأمل والسعادة يشكلان الذاكرة السليمة للمستقبل، الذاكرة الخالية من العقد النفسيّة. عندها ينطلق الإنسان إلى حاضر مشرق ومستقبل متوهّج فالذاكرة لا يبنيها صاحبها فحسب إنّما هي بناء جماعيّ فلنحسن البناء.

٤. شخصيّات مقهورة حليفها الإخفاق

تؤطّر هذه القصصَ رغبةٌ جامحة هدفها تشكيل حالة حضاريّة وفكريّة تصدع الظلام وتكسر قيود الجمود الثقافيّ والركود الفكريّ. وقد تجلّى ذلك في قدرة القاصّة على التسلّل داخل المخبوء والمكنون وَسْطَ هيجان الناس وازدحامهم في العالم وتبعثرهم في الحالات البسيطة والمعقّدة.

ومن الملاحظة وتكرار النماذج ينفتح باب الاختيار أمام عين القاصّة المدرّبة على تخزين ما يصلح للفنّ فاختارت شخصياتٍ هشّمها الماضي وأحالها رماداً. فكانت شخصياتٍ سكونية تمرّ بها الوقائع والذكريات وهي ثابتة على مواقعها وانفعالاتها. بعض الشخصيّات ضحايا البعض الآخر، والجميع ضحايا الظروف الأقوى وقد أسهموا هم أنفسُهم في صنعها. والمفارقة أنّ الشخصيّاتِ التي تصنع الحدث لا تظهر مباشرة، بينما تظهر الشخصيّة صنيعة الحدث وتتحرّك وتتكلّم ولا تتمكّن من تحقيق أحلامها أو لا تسعى إلى تحقيق أحلامها.

نقع في هذا الفضاء القصصيّ على منظومة من القيم يتجاور فيها الإيجابيّ مع السلبيّ ويتفاعل العامّ مع الخاصّ ويحتدم الصراع بين الخير والشرّ ويسقط فيه ضحايا كثر. فقد آلت معظم شخصيّات القصص الصانعة للحدث أو المصنوعة به إلى نهايات ومصائر فاجعة. هو الظلم يطحن الجميع ويودي بهم.

تبدو الحياة في هذه القصص حكايات تتجدّد وتتشابه ولا تتغيّر. عنوانها القهر والظلم والبؤس والأسى والألم. وتغدو الكتابة في هذه المواضيع شعلة متوهّجة على مرّ الزمن لا تنطفئ لها نار ولا يخبو لها أُوار.

نشر في موقع محمد أسليم يوم ٢٦ أبريل ٢٠١٥

www.aslim.ma

تبدأ القصص بالشجن وتنتهي به وقد أورى القهر زَند الشجن. ولعلّ الشجنَ ناجمٌ عن الفَجوة الكبيرة بين ما ترغب فيه الشخصيّة وما تستطيع تحقيقه. والجدير بالتكرار في هذا المقام أنّ الشخصيّات في مجملها لم تسعَ، فلا فعلَ ضدّ الظلم ولا ردّةَ فعل عليه إلّا نادراً، وإن سعت الشخصيّات فالإخفاق حليفها.

٥. العمل القصصي كلٌّ متكامل

تتبع القصص في مجملها مساراً خطيّاً هو مسار حياة الإنسان الروتينيّة يقطعها الاسترجاع ويرتدّ الزمن إلى الماضي لا ليبقى هناك فحسب، إنّما ليُسقط الشخصيّة في أتون الماضي فيخنق الماضي الحاضر ويسيطر الغمام الأسود على المستقبل وتصبح الذاكرة لسانَ الحال وسيّدة الموقف وتسعى الشخصيّة إلى الإفلات من الذاكرة. لكن في ظلّ حاضر قاتم واضمحلال ممثّلي العامل المساعد تشرئبّ الذاكرة وتسيطر وتضحي النهاية المفتوحة في غالبيّة القصص مدعاة للتأويل على احتمال واحد لا غير: الشقاء والتعاسة. إنّه الموت البطيء، الموت السريريّ.

عكس العامل الموضوع نفسه على الزمان، فبرز في القصص التعاقب بين الوقائع والذكريات في مساحات سرديّة لصالح الذكريات ما يجعل هذه القصص قصصَ الذاكرة بامتياز. ذاكرة مثخنة بالمرارات.

هذا الإغراق في الذكريات ودوران الأحداث داخل الشخصيّة قزّما مساحة الحوار الثنائيّ وجعلا القصص تغطّ في مونولوج داخليّ عميق تأتي الوقائع لتعزّزه، فيُفلِح الواقع السوداويُّ بإضرام نيرانه.

لكن وإن كان اليأس سائداً والسعي مشلولًا، هناك قصص تنبض بالثورة وتدعو إلى تحطيم أبواب الفشل وطرق أبواب المسؤوليّة والقرار كما في «سنونوة الصباح الآتي» و«أجساد جوفاء».

وأخيراً تأخذنا هذه القصص في رحلة تصاعديّة كأنّ الأحداث مداميكُ يُبنى بعضُها فوق بعض بتؤدة تاركة القارئ يتقمّص الشخصيّات ويعيش الأحداث. يعيشها بترقّب، بتوتّر، بقلق، بأعصاب مشدودة إلى أن تبلغ القصص لحظة التنوير التي كان قد حدّدتها القاصّة بدّقة لا متناهية، فيعيش القارئ إشراقات منيرة وباهرة يحتاج مئات السنين ليفيق من تأثيرها.

وفي النهاية أقول إنّ قارئ **معطف الرماد جسد الضوء** لا يمكنه أن يغفل الجزء الأخير الذي أسمته الكاتبة «قصص قصيرة جداً». وسواء أكان القارىء من أنصار هذا الفنّ الحديث أم من معارضيه أم من المتريّثين

نشر في موقع محمد أسليم يوم ٢٦ أبريل ٢٠١٥

www.aslim.ma

في الحكم عليه، لا يمكنه إلّا أن يلحظ ما تمتاز به هذه القصص من إبداع وتقانة وتكثيف وإيجاز وجرأة وتشويق وقصصيّة وإدهاش وانزياح وتخييب أفق انتظار القارئ.

بسمة، قلمك واعد وقرّاؤك كثر، والمستقبل أمامك. لك التوفيق.

******

نُشر المقال بموقع محمد أسليم، يوم ٢٦ أبريل ٢٠١٥، على الرابط:
http://www.aslim.ma/site/articles.php?action=view&id=451